

محمد اقبال ومجلس شوري إبليس

حسين عمر حماده

وضع محمد اقبال ديوانه أرمغان حجاز « هدية الحجاز » ، وهو في فراش مرضه الأخير ، سجل فيه آخر أفكاره ، وختم نظراته (١) . وقد طبع في تشرين الثاني سنة ١٩٣٨ م بعد وفاته .

تضم مجموعة الديوان قسمين ، الأول منهما رباعيات ومقطعات فارسية . منها : الى الحق (الله تعالى) ، الى الرسول ، الى مصر ، الى العالم الانساني ، الى رفاق الطريق ، وفي رباعياته الاحدى عشرة ، الى الأمة يخاطب شعراء العرب ، يريد منهم (٢) فهماً دقيقاً لمختلف العلوم والفنون يستند الى ثقافة عريقة ، ويشفق على الشباب منهم أن يسلكوا السبل المضلة الى الشهرة الرخيصة ، فما نحتاجه هو قراءة الدراسات التي يمكن بها تسجيل الأبحاث والموضوعات القيمة لخدمة الشعب حاضراً ولجده مستقبلاً .

والقسم الثاني من مجموعة الديوان بلغة الأردو ، ويضم مجلس شوري إبليس ، ونصيحة البلوجي المسن الى ابنه والصورة والمصور ، الأعراف وصوت الغيب . وتشتمل هذه المنظومات على نقد للحركات الفكرية والثورات الاجتماعية والسياسية التي وقعت في العصر الحديث ، وتساعد على ذبوع العديد من الأمور التي ظلت طويلاً طي الكتمان وكانت من الأسرار .

ترجم (أرمغان حجاز) الى لغات البشتري الأفغانية والتركية والعربية (٣) واستحوذت محاورة مجلس إبليس ومستشاريه على اهتمام الدارسين لأنها سلطت الضوء على دراسة السياسات الغربية تجاه البلاد المستضعفة ، وما يعانيه المستضعفون من

تخلف في استيعاب مفاهيم وقيم ومعايير حضارتهم التي سادوا بها أنفسهم ، وحضروا عبرها المجتمع الانساني .

ابليس والشيطان وجنودهما في مجلس الشورى الذي أحاط به اقبال ، هم من البشر الذين تخلقوا بأخلاق الأبالسة ، وسلكو اسلوك الشياطين ، واستطاعوا الوسوسة لمريديهم (٤) بشر الأعمال وأخبثها من الدس والنفاق والهوان على الذات ، واشعال نار العداوة فيما بينهم ، وقد جلبوا الفقر لاتباعهم ، بعدما بشروهم طويلا بسوى ذلك من الوعود والأباطيل .

واقبال الذي يلتزم حدود المنطق ، ويعرف نتائج المقدمات ، وارتباط المسبب بالسبب (٥) ، ناقش مذاهب حكماء أوربا ومفكرها ، وفلاسفتها ، وقادتها ، وساستها ، وشرائعهم باللغات الاردية والفارسية والانجليزية وسجل حوارات متعددة مع الراحلين ، ومنهم تولستوي ، وكارل ماركس ، وهيجل ، ومزدك ، وكوهكن ، ونيتشه ، وأينشتاين ، وجلال الدين الرومي ، ولينين ، والقيصر فيلمهلم ، ولوك ، وكانط ، وبرجسون ، وبرواننج ، وغالب ، والسعدي ، أراد من الحوارات الحديث عن العديد من المشاكل المعقدة التي يعاني منها الناس في كثير من بلدان العالم ، ليحدث أولا ثورة في أعماقهم ، تمكنهم من ايقاع الثورة في محيطهم ، مصداق لقوله تعالى : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم (٦)) .

أما الحوار الذي أداره اقبال بين ابليس ومستشاريه ، فقد ثبت فيه بعض مفاهيم وتقنيات أبالسة المستكبرين ، الذين يريدون ويسعون من خلال مخططاتهم الشاملة والمرحلية ، المتعددة الأشكال والصور والأدوات والتقنيات ، مسخ الشخصية الحضارية الانسانية ، والاننيّة الخصوصية والذاتية الوطنية لكثير من المجتمعات المتحضرة تاريخياً وأن يحلوا مكانها العقائد المشوهة والقاصرة عن استيعاب ماهية الانسان ودوره الانتاجي في المجتمع والحياة .

عقد اقبال مجلساً متخيلاً بين الأبالسة الكبار والصغار لتقويم انجازاتهم الشريرة ومواجهة أوضاع الناس وعقائدهم . وحسبنا قراءة بعض مما جاء في مجلس شورى ابليس ، لفهم وادراك واستيعاب اسقاطاته التي رمى اليها ، وقد اقتضى البحث تحميل المجلس مقدمة توضيحية ، وبعض الاشارات والتنبيهات عن الأفكار التي سمى اقبال لنشرها عن الأبالسة الذين يقول كبيرهم (٧) :

هأنذا قد علمت الفرنجة أحلام الملكية ، وأنا الذي أبطلت سحر المساجد والمعابد والكنائس ، وعلمت المساكين الفقراء دروس الرضى والاستسلام ، والاتكال على القضاء والقدر . وأنا الذي أعطيت الغني جنون الرأسمالية . فمن يستطيع أن يطفىء النار المستمرة التي تحتوي في هيجانها الحارقة الابليسية .

يقول المشير ابليس الأول :

لا شك في أن النظام الابليسي قد أُحكِم ، ففي ظله ألفت الشعوب طبع العبودية ، ولا ينشأ الأمل في أي مكان ، ولو نشأ في مكان ما فسيبقى ناقصاً ، أو أنه سيموت . ومن كرامات سعينا المتواصل نرى اليوم كلا من الصوفي والشيخ قد صارا عبيدين للملكية ، ذلك أن أفيون الملكية ملائم تماماً لطباع أهل الشرق . على أن علم الكلام ليس بأقل تأثيراً من أغاني الملاحين . ولا خوف علينا لو بقيت ضوضاء الطواف والحج ، لأن سيف المؤمن المسلول صار مغلولاً .

إن هذا المرسوم الجديد الذي أعلن أن الجهاد حرام على المسلم (يقصد الطائفة القاديانية) لهو دليل على اليأس ، ولكنه يأس من ؟

ويرد المشير ابليس الثاني : هل ضوضاء سيطرة الجمهورية خير أو شر ؟ أنت لست بمطلع على فتن الدنيا المستجدة . ويقول ابليس الأول الى الثاني :

أنا مطلع ، ولكن تجاربي العالمية تخبرني بأنه لا خطر علينا من الجمهورية فنحن الذين كسونا الملكية اللباس الجمهوري حين رأينا الشعوب تستيقظ وتفيق مطالبة بالمزيد من حقوقها .

أما شاهدت النظام الغربي الجمهوري ؟ يبدو وجهه مضيئاً براقاً ، ولكنه في داخله أشد سواداً من طغيان جنكينز خان .

يقول المشير ابليس الثالث :

ليس ثمة قلق ولا اضطراب ، لو بقيت روح الملكية ، ولكن ماذا يقول الأخ المحترم في خبث هذا اليهودي ، ذاك الكليم بلا تجلٍ ، والمسيح بغير صليب ، انه ليس نبياً ، ولكنه يحمل تحت ابطه كتاباً ؟ .

يقول المشير ابليس الرابع :

انظروا رد الفعل في بلاد روما الكبرى ، لقد أعدنا الى آل قيصر حلم القيصرية مرة أخرى .

يصف المشير ابليس الخامس ، ذلك اليهودي برأس الأبالسة قائلاً :

إن جميع سحرة أوربا صاروا تلاميذك المخلصين ولكني لم أعد أثق بفراستهم . وها هو اليهودي المفتن الذي حلت فيه روح مزدك ، يبدو أن كل قباء كاد ينشق من جنونه ، وكاد غراب الصحراء أن يصير نداً للشاهين والصقور . وها هي الأرض ترتجف من هول هذه الفتنة .

وقف ابليس الأكبر ، وقال لمشيريه من الأبالسة الصفار :

سوف يشهد أهل الشرق والغرب بأعينهم كيف أثير دماء أقوام أوربا ، وسأريهم ما هي

القيمة لأئمة السياسة ، وشيوخ المعابد ، فان الجيوب التي شقتها يد الفطرة بين الانسان والانسان ، لا يمكن رفوها من ابرة المنطق المزدكي .

ولن يخيفني المشردون متجرو الدهر ، يابسو المخ ، ومضطربو الأحوال ، ان الذي يتهددني مصدره هذه الأمة ، التي ما زال يكمن في رمادها وميض الأمل وشرارة الأمنية . الذين يوجد فيهم الى الآن أولئك الذين يتوضأون من دموع الصباح . ويعرف الذي انكشفت لبصيرته بواطن الأيام أن فتنة الغدليست المزدكية بل ثورة الاسلام .

ولكنني أعلم أن هذه الأمة لم تعد تحمل القرآن ، بل صارت الرأسمالية ديناً للعبد المؤمن اليوم ، وأعلم أيضاً أن أكمام شيوخ الحرم خالية من اليد البيضاء في ليالي الشرق المظلمة .

ويضيف ابليس الأكبر : ولكن نظراً الى حالات العصر الحاضر ، أخاف كل الخوف أن يظهر شرع النبي الحذر الحذر مائة مرة من شرع النبي ، فهو حافظ لكرامة المرأة ، ومختبر لسريرة المرء ، وهو كذلك يصنع الابطال وخلاق للرجال . ان هذا النظام كرسالة الموت وحكم القضاء لكل ألوان العبودية والمذلة فليس ثمة عنده فرق بين ملك الصين أو شاه فارس ، وبين الفقير المدقع .

انه يظهر الثروة ، وينقيها من التلوث . وخطورة المبدأ لديه أنه ينادي في ميدان الفكر ومجال العمل بأن الأرض لله وحده وليست للملوك .

يا ليته قد بقي هذا الشرع مستوراً عن عيون العالم ، ويستحسن أن يصبح المؤمن محروماً من اليقين ، متورطاً في الالهيات والمناظرات الدينية وتأويل النصوص الدينية . ومنها ، أمات ابن مريم أم ما يزال على قيد الحياة ؟

أصفاة ذات الحق منفصلة عنه أو هي غير الذات ؟

وماذا يقصد بالمهدي المنتظر ، هل هو المسيح الناصري ؟ أو مجدد يحمل صفات ابن مريم . وكلام الله بالقرآن حادث أم قديم ؟

اجعلوا المؤمن غافلاً عن دنيا العمل والكفاح ، لكي تنهزم جميع قطعه الشطرنجية على بساط الحياة ، فمن الخير أن يترك هذه الدنيا الفانية للآخرين حتى يوم القيامة ، وأحسن الشعر والتصوف ذلك الذي يخفي حقيقة الحياة عن عينيه .

ويختتم ابليس الأكبر كلامه قائلاً :

اني متخوف من صحو هذه الأمة ويقظتها مع كل نفس .

★ ★ ★

والآن من هم هؤلاء الأبالسة والشياطين الذين أنطقهم اقبال في مجلسهم المتخيل ؟ ان المصطلح عند اقبال فيما مر من صور وتشابيه لا يتوقف عند اللفظ ، وانما يتعداه ليصبح

معناه جزءاً من المجتمع والحياة والعالم ، وهو دعوة لايقاظ الانسان(٨) ، ليعرف قدر نفسه فيحفظها ، وليقوي ذاته لاعلاء الحق، لا لغزو البلاد وقهر العباد .

الأبالسة والشياطين في قصص اقبال الشعرية تتعدد أشكالهم فهم مرة كما جاءت صورتهم في القرآن الكريم ، وانظر هذه المحاوره بين الخالق تعالى وابليس في أبيات عنوانها القدر(٩) :

ابليس :

يا الالهأ أمره كن	ليس عنه بمجيد
لم يصب آدم مني	بعُدو أو حسود
ويح غر من زمان	ومكان في حدود
كيف أستكبر عن أمرك	أو كيف أحيـد ؟
كان في علمك أني	لست أرضى بالسجود

الخالق تعالى :

هل عرفت السر هذا	قبل أو بعد الجحود ؟
------------------	---------------------

ابليس :

بعديا من تجليّه	كمالات الوجـود
الخالق تعالى : (ناظراً الى الملائكة) :	
خسة الفطرة فيه	لقنته الزور عذرا
قال : ما شئت سجودي	أنا لا أملك أمراً
ذلك الظالم سمّـى	اختياراً فيه جبراً
انه سمّـى رماداً	شعلة فيه وجمراً

وتتبدى صورة الأبالسة أيضاً لدى اقبال من خلال فكرة معينة :

ففكرة الجنس المختار وتعاليه على العالمين ، برأي اقبال(١٠) اختراع شيطاني مخيف . والمعرفة التي تمنح الانسان القوة ، ينبغي أن تخضع للعقيدة ، واذا لم تخضع للدين فانما تكون قوة شيطانية محضة .

والعلم الذي لا يستوعبه الشعور ، انما هو سحر شيطاني ، بينما العلم الذي يمتزج بالعشق فله صفات الهية ، وفي قصيدته الى رسول الله ﷺ يرى اقبال(١١) : أن كلمة

التوحيد هي في يمين المؤمن بمثابة الخنجر الذي يقاوم به شيطان الفحشاء والمنكر .
وعن احتمال أن يكون الرجل في صورة الشيطان ، رد اقبال على مناقضيه ، عندما
نشر منظومته والتي رحب فيها بالقائد موسوليني الايطالي ، وبعدها تصور البعض في
ذلك تحولا في فكر اقبال ، وظنوا أنه خرج عن مبادئه التي يبشر فيها بحرية الانسان
وكرامته رد اقبال (١٢) :

انه ليس بمقدوري أن أفعل شيئا ، اذا كان هذا الرجل يجمع في نفسه صفات قديس
وشيطان . فالتناقض والتخبط كامن في تصرفات الآخرين ونكوصهم عن مبادئهم .

فإقبال رحب بموسوليني الذي أنقذ ايطاليا من الفوضى ، التي نشبت فيها بعد
الحرب ، ووجه الأمة الايطالية كلها كمجموعة للعمل والانتاج ، وموسوليني الذي قال: (١٣)
لم أربح من السياسة شيئا ، وأكره أولئك الذين ينالون الثروة عن طريقها . ورحب
اقبال برضا بهلوي واصلاحاته في ايران ، ولما بدأ رضا بهلوي بالتقليد الأعمى للغرب
وتبنى المنهج الغربي للحياة يؤس اقبال من الزعيم الايراني مثلما يؤس بعد ذلك من
الزعيم التركي مصطفى كمال الذي بدأ بتفريب المجتمع التركي بما سماه (الاصلاحات) .
فسجل انطباعاته التي انكسر لها فؤاده في قصيدته : (خطاب الى مصطفى كمال باشا) .
حذر فيها من فناء الشرق وذوبانه في شخصية الغرب . بل ينبغي أن نستعيد شخصيتنا
المستمدة من ثقافتنا وتاريخنا العقيدي .

ويتجسد الأبالسة لدى اقبال في صورة السياسيين والمستعمرين والمضطهدين ، وما
يجلبونه من شر وما يخلفونه من دماء . ففي كتاب (جناح جبريل) يذكر اقبال في عريضة
ابليس : (١٤) .

أن حور الجنة في حزن وألم .

ومن كان يتصور خراب الجنة ، لقد صار أرباب السياسة أبالسة الجمهور .

ويسخر اقبال من المدنية الغربية قائلا: (١٥) حُق للعالم أن يخجل من مدنيته التي
نشرت البلاء شرقاً وغرباً ، واقتضح أمرها في كل بادية وحاضرة وتحول ملاكها شيطانا
رجيماً .

ومما يروى من ذكريات اقبال أنه عندما تساءل بعض زملائه في جامعة كمبردج
الانجليزية (١٦) عن السبب الذي بعث فيه الأنبياء ومؤسسو الأديان في آسيا دون أوروبا،
رد قائلا : لأن العالم مقسم بين الله والشيطان ، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا
من نصيب الشيطان . فقال أحدهم : قد عرفنا رسل الله فإين هم رسل الشيطان ؟ فأجاب
اقبال من فوره : انهم زعماء الخداع والمكر في أوروبا .

وبشأن مواجهة الأبالسة والشياطين ، فهم اقبال أن ذلك يتم بفاعلية حركية اجرائية
مستندة الى العقيدة الاسلامية التي لم يأنس فيها التواكل والسكون الجامد . فمقصود

الانسان في هذه الحياة (١٧) معرفة ذاته وتقويتها ، وتنمية مواهبها ، واستنباط ما في فطرتها ، وليس من الخير في شيء انكار الذات أو اضعافها . ولا ينبغي العمل لفنائها ، ولا الرضى به كما يفعل الهنادة وصوفية المعجم . لأن نفي الذات هو من اختراع الأمم المغلوبة بعدما زينت الاقوام الغالبة لها ان الزهد والاستكانة وانكار الذات هي السبيل فحسب للدار الآخرة ، في حين أن الحياة الفانية والباقية ، تقوم بالعمل والجهاد ، فعالم المادة كائن لا ريب فيه ، وان على الانسان أن يقهره ويسخره لنوال مقاصده والارتقاء بنفسه الانسانية من خلال تسخير هذا العالم لخدمتها .

فمبدأ الحركة عند اقبال ينسجم مع تفسيره للفائية (١٨) . فالحركة ليست الانوعاً من تأهب الانسان لقبول ما تمليه الضرورات الجديدة ، وامكانيته في التعامل معها ، سواء على نطاق الفرد أو المجتمع .

وهذا كله يتناغم (١٩) مع ضبط النفس ، الذي لا يكون الا بنفي الخوف والشهوات ، والذي لا يحكم نفسه حري به أن يحكم عليه غيره . وبهذا فهم اقبال الزهد على أنه لا يعني أن لا تملك شيئاً ، ولكن الزهد أن لا يميلك شيء .

وقبل الخاتمة ، فان اقبال لم يفهمه المسلمون ، ولم يفتن اليه الحكام الانجليز (٢٠) فلو فهمه الأولون لتحرروا ، ولو فطن اليه الآخرون لما مات في لاهور بل منفياً في جزيرة اندمان (الماء الأسود) .

وفي هذا المعنى يذكر اقبال في كتابه جناح جبريل (٢١) : اني لا أقول الا ما أراه حقاً لقد غضب عليّ أقربائي ، كما أن الأجانب لم يرضوا عني أيضاً ، لأن أعمال الرجال الانارة والحرارة ، وأعمال السفلة الاحتياال وفقدان الحياء .

ومع أن الباحث محمد عالم قال (٢٢) : ان أرض البنجاب لا تستطيع أن تخرج اقبالا ثانياً في عصور طويلة ، لأن الكون (٢٣) يعمل جاهداً حتى يبلغ مقصداً من مقاصده ، فهو يغرس ألف قصبة ليظفر بأنة من ناي ، وكم بث نواحاً في النفس حتى صعد صوت أذان . وكم حارب الأحرار حتى قرىء على لسان كلمة التوحيد ، فاننا لهذا لا نريد اقبالا ثانياً ، بل اقبالا واحداً ، ونريد بعده رواداً للنهضة والتحضير ، يتابعون لأداء الرسالة السماوية الانسانية ، من حيث انتهى اليها كل منهم ، حتى تتصل الجهود وتتراكم المعارف والخبرات والمهارات والتضحيات لصنع غد أكثر اشراقاً وأمناً .

وأخيراً عندما أراد اقبال في إحدى الحفلات أن يختم حديثه بهذه الفكاهة قائلاً :

ذهب الى ابليس جماعة من تلاميذه أيام الحرب العظمى (الأولى) فوجدوه خالياً ساكناً يدخن سيجاراً .

فسألوه لماذا يجلس فارغاً من العمل ؟

فأجابهم ابليس : وكلت كل أعمالي الى الحكومة البريطانية في هذه الأيام .

حسين عمر حمادة

دمشق ١٠/١١/١٩٨٦

□ مصادر الدراسة وهوامشها :

- ١ - عبدالوهاب عزام . محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره ، مطبعة الصباح بالقاهرة ، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ص ١٤١ .
- ٢ - محمد حسن الأعظمي والساوي علي شعلان . الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي تحقيق مصطفى غالب ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ص ١٤ .
- ٣ - أحمد معوض . العلامة محمد اقبال حياته وآثاره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .
- ٤ - منصور علي ناصيف . التاج الجامع في احاديث الرسول (ص) ، دار الحكمة ، دمشق - طبعة بالأوفست - ج ٥ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
- ٥ - حسين مجيب المصري . اقبال والقرآن من كتاب محمد اقبال اعداد خالد عباس أسدي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٢ - ص ٧٤ .
- ٦ - سورة الانفال وسورة الرعد .
- ٧ - سمر المصري . مجلس شوري ايليس من كتاب الاعلام الخمسة للشعر الاسلامي مرجع سبق ذكره ، ص ٨٨-١٠١ وانظر خالد عباس أسدي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ - ٢٣ وعبدالودود شلبي ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- ٨ - عبدالوهاب عزام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ .
- ٩ - المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- ١٠ - أحمد معوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- ١١ - محمد شلبي ، الفيلسوف محمد اقبال والاسلام من كتاب محمد اقبال اعداد خالد عباس أسدي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ .
- ١٢ - أحمد معوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- ١٣ - ج . هـ . ويلز . بنيتو موسولينى . مطابع دار النشر والتأليف التجارية بمصر ، تعريب عادل ابراهيم ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٩ ، ص ١٢ - ١٤ .
- وانظر خالد عباس أسدي ، ص ٢٨ .
- ١٤ - الأعظمي وشعلان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .
- ١٥ - أحمد معوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ - ٨٦ .
- ١٦ - الأعظمي وشعلان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .
- ١٧ - عبدالوهاب عزام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ - ٦١ .
- ١٨ - عطية سلمان عودة أبو عاذرة . مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الاسلامي الحديث عند كل من الامام محمد عبده ومحمد اقبال ، دار الحديث ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٧ .
- ١٩ - عبدالوهاب عزام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ .
- ٢٠ - الأعظمي وشعلان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠ .
- ٢١ - المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤ ، ١٠٦ .
- ٢٢ - المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠ .
- ٢٣ - عبدالوهاب عزام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .